العدد (1911) السنة الثامنة - الثلاثاء (21) أيلول 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

## - دعـــــوة -

**تدعو صفحة آراء وأفكار الكتاب الى مناقشة واقع التيارات العلمانية في البلاد وما يمكن أن تلعبه من دور في خلق التوازن السياسي وكيف يمكن تفعيل تواجدها في الشارع العراقي بما يساهم في خلق التنوع الفكري وصولاً الى التعددية السياسية بصيغها التنظيرية والتطبيقية.**

### تمـــثـــلات الـــنـــهـــضـــة

# ثـــقـــافـــة الـــنـــهـــضـــة والمـــثـــقـــفـــون والـــدولـــة

**اتخذت موضوعة النهضة والثقافة والتحديث إطاراً سياسياً تزامن وتمثّل "مع فكرة الاستقلال وتشكّل الدولة الحديثة" ص٣٢. هذا الشرط (السياسي) كان الأكثر إلحاحاً وضرورة في منظور النهضويين العراقيين الذين أدركوا أن النهضة والحداثة والتقدم والثقافة بحاجة إلى أرضية سياسية؛ أي إلى كيان دولة يكون بمثابة الناظم والضامن لتحقيق النهضة والحداثة وارتقاء الثقافة وتعزيز الهوية (الوطنية) الجامعة للهويات الفرعية لشرائح المجتمع العراقي.**

**( الجزء الثاني )**

سعد محمد رحيم

كان على الدولة أن "تسعى إلى خلق ناظم يقوم عليه الإجماع الوجداني العاطفي، ويتمثل بإشارات ورموز ثقافية يتوحد عبرها الناس ويتوطد شعورهم بالتلاحم" ص٢٦. فيما لم يغب عن أذهان المثقفين "ضرورة تحديد وظائفهم، وتعيين مواقعهم كنقاد ومقوّمين أخطاء الدولة وإرث المجتمع الذي يفتقد العلم ويعيش في ظلام الخرافة" ص٢٧. والسؤال المنطقي الذي يواجهنا بهذا الصدد هو؛ هل كانت الدولة العراقية الناشئة في وعي روادها وقادتها تمتلك فلسفة نهضة واضحة، واقعية، ومتماسكة؟ وهذا يقودنا إلى السؤال التالي؛ كيف تحددت العلاقة بين الدولة بعدّها جهازاً مؤسساتياً وبين "محترفي القول الثقافي، في زمن التحوّل" كما تسميهم الباحثة، وهم دعاة النهضة والحداثة. والأخذ بأسباب العلم والرضوخ لسلطة العقل، والتأكيد على المستقبل؟

دشنت النهضة التاريخ الاجتماعي والسياسي للعراق الحديث، وكانت لحظة فارقة ستتغير بعدها مجمل الخرائط والترسيمات السياسية والاجتماعية والثقافية في البلاد، وستمهد لقيام مؤسسة الدولة العراقية الحديثة ( ١٩٢١ ). لكن المفارقة أن فلسفة النهضة هذه لم تصبح، على درجة مقبولة وفاعلة، هي عينها فلسفة الدولة العراقية، لأسباب بعضها يتعلق بالقصور الذاتي لفلسفة النهضة، وفشل النخب المفكرة في جعلها إطاراً فكرياً متماسكاً. وبعضها يتعلق بطبيعة الدولة نفسها؛ إشكالية نشوئها وتعرّج وتعقد مساراتها، وإخفاقات النخب السياسية التي أدارتها وصراعاتها، والتحديات الداخلية والخارجية التي واجهتها، والتي لم تكن للدولة الفتية الطاقة والمقدرة الكافيتين للتعامل معها. كان ما يفكر به المثقف والمفكر المنزّه عن المصالح الضيقة غير ما يفكر به السياسي المحكوم بانتمائه ومصالحه. وكان المثال غير الواقع.

تُرجع الباحثة منجز قيام الدولة العراقية وتحديد مستقبل الاستقلال إلى صراع الثقافتين الغربية والمحلية مثلما تجسّد في ثورة العشرين التي "أرغمت البريطانيين على التفكير بالكيفية التي يتعاملون بها مع الثقافة والقيم المحلية، وكان من ثمارها تأسيس المملكة العراقية بقيادة ملك هاشمي" ص٢٢. وتؤكد أن الدولة في العراق الحديث قامت بدور الوسيط "أي الحامل الإيديولوجي لفكرة النهضة كعقيدة ونافست المثقفين في بث هذه الفكرة عبر البرامج التعليمية، والمؤسسات الحديثة، لكن قوتها الأكبر برزت في كونها المساهم الفاعل في صناعة رموز التحديث، ولهذا بقيت الدولة المتمثلة بنوع السلطة وقادتها، من بين أهم المؤثرات في تقدم العراق" ص٢٩.

استمرت العلاقة بين المثقفين والدولة ملتبسة وسلبية في معظم الأحيان، على الرغم من أن كثراً من المثقفين أصبحوا موظفين في سلك الدولة. ولم يكن السبب اختلاف مضامين فكرة النهضة عند هؤلاء وأولئك بل بسبب طبيعة الدولة نفسها التي تأسست برعاية بريطانية (كولونيالية) فعدّها المثقفون أو جلّهم قاصرة، وتعامل معها بعضهم بعدائية كون القائمين عليها عملاء للاستعمار.

شاب تلك العلاقة لمدة طويلة انعدام الثقة وسوء الظن والمعاداة المتبادلة. وظل المثقفون الذين تشربوا بأفكار اليسار (الماركسي) الوافدة لتوّها، ومن ثم أفكار التحرر الوطني والقومي يناوئون الدولة القائمة برجالها ومؤسساتها. وأعتقد أنهم، في نهاية المطاف، شكلوا عقبة أمام تطورها. وهذا لا يعني بأية حال أن الدولة القائمة نفسها كانت بريئة تماماً وكاملة الأوصاف، هي التي ولدت في ظروف اجتماعية وسياسية صعبة وعلى ركام من إرث تاريخي ثقيل؛ ( تناحرات اجتماعية، فقر مدقع، وتخلف تعليمي وثقافي، الخ ) فيما الاقتصاد كان ريعياً والموارد محدودة، وكانت الطبقة الوسطى التي من المفترض أن تساند الدولة ( لتوافق المصلحة ) بالغة الهشاشة، ولا تشكل سوى نسبة ضئيلة وسط مجتمع فلاحي طاغٍ. فضلاً عن أن الدولة الجديدة كانت ضعيفة مؤسساتياً في مقابل مؤسسات أهلية راسخة ( طائفية وعشيرية ) وتحت تأثير وتحكم قوة كولونيالية بريطانية لها ستراتيجيتها المختلفة وأطماعها. وإذن لم تؤازر الأنتلجنسيا العراقية دولتها الناشئة بقدر ما عادتها، وثقفت ضدها بعد أن طغت المسحة الطوباوية على وعيها وافتقرت إلى الحس والوعي التاريخيين السليمين. فوظيفتها تعدّت الموقف النقدي الموضوعي إلى سلوك سياسي جامح ودعوات للعنف (الثوري وغير الثوري) سيفضي بالتالي إلى التغيير الكبير في ١٤ تموز ١٩٥٨ والذي شكل انعطافاً في تاريخ العراق ولم يأت بحلول ناجعة للمشكلات التي كانت قائمة والأخرى التي دشنتها هي. مفتتحاً ( على الرغم من أن سنواتها القليلة الأولى أثمرت عن منجزات وتحولات ملموسة ) عهدا من الصراعات والانقلابات الدموية التي انتهت إلى الديكتاتورية ومن ثم إعادة احتلال العراق.

تستثمر فاطمة المحسن تعريف جيرار ليكرك للمثقف، أكثر من تعريفات غيره له، في اختيار نماذج المثقفين العراقيين الذين أثّروا في ثقافة المجتمع وأثّروا ثقافة النهضة في العراق. فالمثقف بحسب ليكرك هو "منتج الأثر؛ كتاب، مقالة علمية، لوحة، معزوفة موسيقية، منحوتة.. أي من ينتج العالم الرمزي الخاص بالإنسانية، والذي يتضمن الفن والعلم والدين، وكل المجال الثقافي الجمالي، الإيديولوجي..الخ" ص٥٥،٥٤. وهذا التعريف ذو السمة العمومية ينوّع شريحة المثقفين من جهة، ويحددها بمبدعي الثقافة ومنتجيها من جهة ثانية. وحين تستعير تعريف غرامشي المزدوج للمثقف ( التقليدي والعضوي ) الأكثر اتساعاً حيث تتعين ممارسة الثقافة الاجتماعية في "من يملك طاقات ( تقنية ) أو ( توجيهية ) في المجتمع" ص٥٥. فإن قاعدة المثقفين تتسع " لتشمل المهندسين والأطباء والإداريين والبيروقراطيين والسياسيين وسواهم من المؤثرين في الحياة الاجتماعية. بيد أن الباحثة في فصول الكتاب كلها لا تكاد تشير إلا إلى فئة ضيقة من هؤلاء المثقفين، وهم منتجو الأثر الأدبي والفكري والصحافي، أي الكتّاب، على وجه التحديد.. ولا تأتي على ذكر الرسامين حيث بواكير الحركة التشكيلية العراقية بدأت مع بزوغ فجر النهضة العراقية ( أواخر القرن التاسع عشر ) ونموذجها الأبرز عبد القادر الرسام. وكذلك الأمر مع النحاتين والموسيقيين ناهيك عن بقية الفاعلين الاجتماعيين الذين ذكرتهم. وبهؤلاء تبلورت شيئاً فشيئاً فسيفساء المدنية العراقية الحديثة. وعلينا الإقرار بصعوبة اقتفاء آثار المساهمين مادياً والمؤثرين في الحركة الاجتماعية النهضوية في البلاد. فالباحثة ركزت على دعاة النهضة وأفكارهم ولم تذهب بعيداً في كيفية تجسّد هذه الأفكار، أو أثرها في قيام مؤسسات وحدوث حراك ثقافي واجتماعي إلا بشكل محدود. وليس من حقنا أن نطالبها بأكثر مما حددت به موضوعة بحثها بدءاً من العنوان ( تمثلات النهضة في ثقافة العراق الحديث ) على الرغم من المساحة الواسعة لوعدها لنا في مقدمة الكتاب؛ "الثقافة فيما سمّي العراق الناهض، لا تعني الأدب والفكر فقط، بل هي التكوين المديني والقيم الجديدة والعمران، وقد تناول درسنا هذا الأمر بشقّيه: مفهوم التطور والارتقاء المديني، وصراع القيم القديمة للمكوث في الثقافة الجديدة" ص١١. مثل الدعوة إلى حرية المرأة، والخروج من الصلة الطائفية والعشائرية إلى توطيد مبدأ المواطنة.

وفي مرحلة طغت عليها الثقافة الشفاهية والفكر التقليدي والقيم الموروثة التي عفا على بعضها الزمن. ولأن الثقافة السائدة في بلدان الشرق الإسلامي، ومنها العراق، كان ذا طابع ديني تقليدي، فقد كانت عمليات التلاقح مع الفكر الآخر، الغربي، تجري بعسر، وببطء شديد، وكان رجال الدين المتحدرون من العائلات المتنفذة بحكم منزلتها الدينية المتوارثة هم أول من استقبلوا الفكر الوافد، أو الفكر الذي احتكوا به نتيجة أسفارهم إلى البلدان الغربية. فمنهم من رفضها جملة وتفصيلاً، ومنهم من تعاطى معها بحذر شديد، مع تأثر ضئيل ملموس كما هو شأن أبو ثناء الآلوسي، ومن ثم ( بدرجة أكبر ) حفيده محمود شكري الآلوسي في العراق. ومنهم من تأثر بها بشكل كبير، ودعا إلى فتح قنوات أوسع للتفاعل والاستفادة كما هو شأن رفاعة رافع الطهطاوي في مصر.

وإن لم يفقد رجل الدين الذي كان يسمى بالعالم في الأدبيات العربية الإسلامية مكانته ودوره التعليمي كثيراً في عراق مرحلة النهضة، مع ظهور شريحة المثقفين من أدباء وكتّاب فإن تغيراً حقيقياً قد حدث حين أضحى المثقفون ممثلين "لصوت الموقظ من الجهل"، ومن غير تبني دور الوسيط بين المقدس والجمهور مثلما بقي رجال الدين يقدّمون أنفسهم ودورهم. بالمقابل تشرّب الأدب والفكر الحديثان ببعض أساليب ورؤى الثقافة الغربية. وتكشف الباحثة أن عملية المثاقفة هذه أورثت المثقف شعوراً بالغربة، بابتعاده "عن تقاليده الأولى وتراثه، يمضي به إلى مزيد من الاستلاب، ومن خلاله ينشأ ما يسمى (الوعي الشقي) عند المثقفين" ص٦٩.

إن من نطلق عليهم اصطلاح ( المثقفون ) في العراق الحديث نشأوا كشريحة تتحدر أغلب أفرادها من الطبقة المدينية الوسطى بتأثير أربعة عوامل رئيسة هي:

١. إنشاء المدارس وانتشار التعليم. وقد عرف العراق نوعاً حديثاً من مراكز التعليم مع الإصلاحات المحدودة التي قام بها بعض الولاة العثمانيين المتأخرين ( ازدادت المدارس بعد تأسيس الدولة العراقية ) بعد أن كانت المؤسسات التعليمية الوحيدة في ولايات العراق هي الكتاتيب ودور العبادة والتي كانت تقدّم تعليماً تقليدياً.

٢. خروج بعض أفراد الطبقة ذاتها إلى الخارج للتعليم ( لاسيما العسكريون ) وتعرّفهم على أفكار جديدة جلبوها معهم في أثناء عودتهم وروّجوا لها.

٣. دخول منجزات التكنولوجيا الحديثة وانتشار وسائل الاتصال والإعلام وبدء ازدهار الصحافة، وما رافق ذلك كله من حراك اجتماعي.

٤. صدمة الاستعمار. وأحسب أن هذا العامل قد منح الثقافة السائدة بُعداً سياسياً واضحاً.

عرّض الأفكار العلمية الجديدة المعتقدات التقليدية للتصدّع. وتحوّل الفضاء الثقافي في عراق بدايات القرن العشرين إلى ميدان للصدام الفكري. وراح مثقفون عراقيون يعرّفون بأفكار داروين ونيتشة ونيوتن وغيرهم. وهنا بدأت النزعة الشكّية بالظهور، وراجت النظريات العلمانية التي تدعو إلى فصل الدين عن السياسة "وفك الارتباط بين الناس والخوف من المجهول" ص١٢٦. هذا الارتباط الذي يحول دون تلقي النظم الجديدة في الاعتقاد من قبل الجمهور. وهنا كان صراع الأفكار بين رجل الدين والمثقف الجديد، كما ترى الباحثة. وفي رأيها كان هذا أيضاً؛ "صراعاً على الحيّز الثقافي، أي فضاء الحركة الذي كان لرجال الدين فيه فاعلية استثنائية. ولم يكن هذا متمثلاً فقط في المكان التعليمي، بل في استمرارية المظهر واللقب في المحافل الأدبية. فهناك مجموعة من الشعراء والمساجلين في الحداثة والعلوم الجديدة، من الذين يحملون لقب شيخ ويرتدون العمامة. والمفارقة أن الكثيرين منهم، دخلوا في معارك مع رجال الدين التقليديين، وبينهم علي الشرقي ومحمد رضا الشبيبي" ص١٢٨.

حصل انعطاف كبير، لاشك، في المجال الثقافي.. ثمة مفاهيم جديدة كالاستقلال والسيادة والديمقراطية والهوية الوطنية دخلت حقل التداول، لم تكن معروفة من قبل. وانبثقت عنها أفكار وقيم اجتماعية وسياسية مغايرة، غير أنها، على وفق ما تجزم الباحثة، لم تفض إلى تكوين تيارات فكرية واضحة المعالم. كانت هناك مقاربات عراقية "لفكر التنوير الغربي تجاوزت فكرة الشك إلى الوعي بالعالم الموضوعي والمسافة التي تفصل الذات عنه" ص١٣٢.

كانت أدبيات النهضة العربية تجد طريقها إلى المثقفين العراقيين من طريق الكتب والدوريات الآتية من مصر وبلاد الشام. وبات المثقفون العراقيون يطلعون على أفكار دعاة النهضة في باقي البلدان العربية. فضلاً عن الكتب الغربية المترجمة. وهذه كلها كانت تلقي بأحجار صغيرة أو كبيرة في مياه الثقافة العراقية الراكدة منذ قرون، وتصنع دوائر من التأثير صغيرة أحياناً وكبيرة أحياناً. إذ يصبح العالم القائم بمعتقداته وقيمه ونظمه ومؤسساته وأشكال تعبيره تحت التهديد حين يكون هاجس التغيير والتحديث محرّكاً لتفكير النخب وتطلعاتها وأنشطتها. فمع رواج الأفكار الجديدة انتقلت ذبذباتها إلى الحقول المعرفية والاجتماعية التي راحت تضطرب وتتخلخل وتتحوّل.. كان الأدب واحداً من تلكم الحقول وبدأ أول الغيث مع الشعر.

صحيح أن الرصافي والزهاوي ومحسن الكاظمي والشبيبي وغيرهم بقوا ينظمون الشعر بصيغته الموروثة، لكن تسرب المفاهيم والمفردات والأفكار الجديدة إلى نسيج القصيدة التقليدية أدى بالضرورة إلى استجابة فنية (على صعيد الشكل والإيقاع) وهذا سيبسط الطريق لولادة قصيدة التفعيلة (الشعر الحر) في ما بعد.. تقول الباحثة؛ "الضعف الذي انتاب قصيدة المدينة البغدادية، يرتبط بالحياة الحديثة التي أضحت مسؤولة عن وَهَن الشعر وتفكيك مفاصله التراثية، واقترابه من المحكي واللغة المتداولة في الشارع، ولعلها كانت البداية الممكنة للتخلص من وطأة القصيدة التراثية" ص٢١٨.

سيتمخض انتشار المطابع وازدهار الصحافة عن فنون المقالة الصحافية والرواية والقصة القصيرة وسينتعش النقد الأدبي أيضاً. وسيستثمر الشعر ممكنات الدراما والسرد ليقترب من الهموم اليومية للناس وواقعهم الصعب؛ إذ أن "الدراما التي تتجسد من خلال حوار الشخصيات، أو تبدل مواقفها ومواقعها، تساعد الشاعر على التحكم بضمائر القول، كما تبيح تنويع القافية ومرونة الانتقال من الشعر إلى النثر" ص٢١٢. وسيكون للقصة والرواية دورهما في بث الوعي المديني والقيم الحضارية الجديدة. وبالتوازي مع تحديث الشكل الشعري سيتطور فن القصة القصيرة والرواية، وسيجد فكر النهضة والتحديث والتمدن مسارب مضافة، فعالة إلى عقول الجمهور.

بالمقابل أشاعت الصحافة لغة مغايرة أكثر مرونة وسلاسة واستساغة وقدرة على التعبير عن الأفكار الجديدة. وقد أضحت ذات تأثير طاغ على لغة الأدب ساهمت، مبكراً، في اجتراح أجناسٍ لم تكن مألوفة منها المقالة الصحافية، والقصة القصيرة، ومن ثم الشعر الحر، وبعدئذ قصيدة النثر.. تقول الباحثة؛ "ولكن لغة الصحافة العراقية، كانت وراء الاندفاع نحو الاستخدام الجديد والمبسط لكل الأفكار والمباحث الاجتماعية والأدبية، وخرج من معطف النص الصحافي، القص الوعظي، ورواية العبرة، وقصص الإيقاظ الحلمية، وصولاً إلى الرواية الواقعية، فأهم كتّاب القصة كانوا صحافيين والكثير من قصصهم نُشرت في الصحف" ص٢٣٠.

صحيح أن هذه اللغة الصحافية كسرت القوالب البلاغية المتحجرة والمتكلفة إلاّ أنها لم تكن العامل الوحيد في خلق الأجناس الحديثة بعدما كثرت واتسعت النوافذ المفتوحة على العالم، وبدأت الكتب والدوريات العربية تصل وتجد لها جمهوراً من القراء آخذاً بالازدياد. وهذا كله حصل في بيئة سياسية موّارة ومتقلبة فرضت على كل من الصحافة والأدب الركون لشروطها ومتطلباتها. وكانت لهذه الحالة تداعياتها.. تقول الباحثة؛ "أضعف التعالق بين الأدب والسياسة أدبية النص الصحافي العراقي، ولكنه ترك أثراً في انطلاقة الجنس الأدبي الجديد وهو فن القصة، الذي بدأ وتطور بالترافق مع الفن الصحافي" ص٢٣١،٢٣٢.

توسعت دائرة الأنتلجنسيا العراقية، غير أن أي مراجعة للدراسات التي تناولت الفكر النهضوي العربي في مرحلته البازغة تكاد تخلو من إشارات إلى مساهمة المفكرين العراقيين في إنعاش فكر النهضة العربية، والسبب الرئيس هو الإطار المحلي لفكر النهضة في العراق الذي عاش في شبه عزلة لمدة طويلة عن محيطه العربي على عكس مصر وبلاد الشام اللتين كانتا أكثر استقلالاً وتوحداً من جهة وأكثر انفتاحاً بتأثير عوامل تاريخية وجغرافية وسياسية عديدة من جهة ثانية. ولذا كان الأفق العربي والإسلامي ماثلاً في فكر المفكرين النهضويين المصريين والشوام.

تذكر الباحثة أن الرصافي ( الشاب ) في أول عهده بالنشر في الصحف والمجلات العربية كان قد استرعى انتباه المثقفين العرب وظنوه اسماً مستعاراً لأديب كبير. وتردف؛ "تلك الانطباعات تشير إلى عزلة العراق وضعف تواصل أدبائه مع النهضة العربية، فالعراق على ذلك العهد، شأنه شأن شاعره الجديد كان يتأرجح بين الثقافتين التركية والعربية. ولعل نتاج الزهاوي والرصافي سجّل بداية التعرف على ما يمكن تسميته كواليس النهضة العربية لا واجهاتها" ص٣٧٧.

# هـــل يمكـــن للتيـــار العلمـــاني والتيـــار الدينـــي خلـــق نمـــوذج جديد؟

طارق الجبوري

**تعرض مصطلح العلمانية في محيطنا العربي لكثير من حملات التشويه والابتعاد به عن معانيه الحقيقية ومغزى تبنيه، بادعاء ابتعاده عن الدين بل ومخالفته شرائعه و تبنيه دعوات أوروبية هدفها الابتعاد بالمجتمع عن قيمه. ويحسب للتيار العلماني قدرته على التصدي لهذه الهجمات رغم حدتها وشراستها من قبل دعاة التخلف ،في مرحلة ما يسمى بالنهوض الوطني والقومي والنضال ضد الاستعمار، وإبقاء جذوة الدعوة الى بناء الدولة الحديثة متقدة في نفوس الغالبية من العرب، بعد أن سئموا أوضاع التخلف والجهل والظلم التي ظلوا يرزحون فيها منذ بدايات أفول نجم النهضة العربية وانهيار الدولة العربية على يد المغول وما اعقبها من صراعات انتهت باحتلالها من قبل الجيش العثماني في اوائل القرن السادس عشر، وهكذا دخلت المنطقة العربية بعصور ظلام ما زلنا نعانيها حتى الآن .**

غير ان اكثر الحملات ظلماً وتجنياً التي اصابت العلمانية بمقتل ،كما يقولون ،هي ماجاءت على يد حملة شعارها من جانبين الاول : قفز البعض منهم على الواقع بصبيانية سياسية متحاملاً على الدين وعاده السبب الوحيد لكل الاوضاع المزرية وبالتالي الدعوة الى التخلي عنه كسبيل للحاق بركب التقدم والنهضة، والثاني من خلال عجز البعض عن ترجمة المفاهيم العلمانية الى واقعية بل و الانحراف بها، خاصة في مجال اعتماد التحولات الديمقراطية ونبذ مفهوم الهيمنه الشخصية او الحزبية على مقاليد الامور التي تعد من اهم شروط بناء دولة المؤسسات التي على وفقها وكنتيجة لها يمكن الوقوف على بوابات التطور التي شهدها العالم .

لقد اوغل دعاة الجانب الاول بتحميل هذا التيار شطحات عقلياتهم التي لم تفرق بين روح وجوهرالاديان ، كدعوات للتغيير وثورة على كل ما يعيق تقدم البشرية وبين أدعيائها والملتفين في جلبابها ممن عملوا في كل العصور على خدمة الانظمة بدعواتهم الجاهلية المتسترة بالدين وهو منهم براء، فأعطوا بطروحاتهم تلك سلاحاً لتشويه وجه العلمانية الحقيقي ، الذي نادى دعاتها ومنذ انطلاقاتها الاولى في اثينا بفصل الدين عن الدولة (ما لله لله وما لقيصر لقيصر) ، مفهوم واضح وجلي لالبس فيه لولا المغالاة التي رافقت انتشاره في العراق وغيره ، والتي جاء بعضها ، كما نظن ردة فعل على ممارسات بعض رجال الدين المماثلة والمنحازة لسياسة الانظمة الحاكمة واعوانها طبقاتٍ وأشخاصاً.

أما الجانب الآخر فقد ظل عاجزاً ، رغم حمله شعار العلمانية ،عن بناء نموذج في اي من المحيط العربي يقترب او يمنح الامل بالمستقبل ، لتصحيح اوضاع شاذة لم يجن المواطن خلالها غير المزيد من الذل والقهر والقمع . فصحا المواطن بعد سنوات تخدير بشعارات لم يكن لها صدى على ارضية الواقع ، ليجد ان ثمرة تضحياته ضاعت سدى وان التغييرات التي حصلت في طبيعة الانظمة لم تتجاوز الوجوه حسب ، أما العقلية فبقيت كما هي .

رافق ذلك صراع مرير بين مختلف الاحزاب والحركات ا لتي رفعت شعار العلمانية لكنها لم تلامسها ولم تقترب منها عملياً، لا في حياتها الداخلية ولا في انظمة الحكم التي تسلمتها في هذه الدولة او تلك .

ومما ضاعف من ازمة التيار العلماني المفكك وتنامي دور الحركات الدينية، سقوط الشاه ونجاح (الثورة الإيرانية) وتصاعد دور طالبيان في أفغانستان وخروج الاتحاد السوفيتي منها آنذاك عام ١٩٨٩.

ومن المناسب ان نشير هنا الى انه في الوقت الذي كانت فيه البرجوازية الصاعدة في دول اوروبا الغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تسير قدماً للمضي بتأسيس مقومات الدولة الحديثة ونجاحها في تكريس المفاهيم الديمقراطية وتحقيق انظمة مستقرة رغم ما سببته الحربان العالميتان الأولى والثانية من مآس، فان الشيوعيين في دول ما كان يسمى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي ، فشلوا في مجاراة النموذج الغربي او ايجاد شكل ديمقراطي يمكن ان يكون بديلاً لما يشهده الغرب، ولم تنفع دعوات استهجان الاسلوب الستاليني التي انطلقت في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي عام ١٩٥٦ من تحقيق اي تقدم في مجال خلق نموذج نظام ديمقراطي يمكن ان تتجه اليه الانظار في دول العالم الثالث ومنه بعض الانظمة العربية التي رفعت شعار اليسار ، بل ان الاتحاد السوفيتي لاسباب بعضها ذاتي يتعلق بطبيعته وهو الغالب ، أخذ يصيبه الوهن،رغم مظاهر القوة الخاوية.

وبغض النظر عن وجهات النظر المتباينة ، بشأن النموذج الديمقراطي الغربي وما علينا من ملاحظات إزاءه، او ما حصل من انهيار كارثي للاتحاد السوفيتي وما اعقبه او سبقه من تغييرات في بولندا ورومانيا وغيرهما ، فإن المفارقة في محيطنا العربي ومنه العراق، التي تثير اكثر من علامة استغراب ان الاحزاب فيه سواء من اعتنق التوجهات اليسارية أم التقدمية أم القومية أم الليبرالية الغربية ، ظلت في منأى عن كل التطورات التي يشهدها العالم ، ولم تلامس في تطبيقاتها أياً من المفاهيم العلمانية رغم كل ما وضعته من براقع حاولت فيها ان تغطي تمسكها بالسلطة التي عدتها الغاية لكل شيء وان كل الوسائل يجب ان توظف لخدمتها.

وفي كل الاحوال فقد اثبتت تجارب التاريخ القديم أن بدايات الانهيار للدول والامبراطوريات مهما اوتيت من قوة كانت عند تخليها عن مواكبة ما يحصل من تطورات وتمسكها بقيم بالية بحسب مفهوم العصر آنذاك، وإننا لا يمكن إلا أن نستنتج إذا أضفنا تجارب التاريخ القديم الى المعاصر، بأن بناء دولة حديثة لايمكن ان يستقيم بغير تحويل العلمانية بمفهومها الحقيقي والصحيح ، إلى سلوك حياتي نمارسه في تحاوراتنا السياسية او في قيادة مؤسسات الدولة وفي عملنا في البرلمان ، وان نغادر مفاهيم العلاقات المتوترة التي كانت سائدة في المراحل السابقة بين التيار العلماني والتيار أوالفكر الديني المتنور إسلامياً كان أم غيره ، وصياغة علاقات مبنية على التعايش بينهما اساسها تعزيز روحية الحوار .

قد تكون فرصة تحقيق ذلك غير مواتية في المحيط العربي ، عدا العراق الذي توفرت فيه مقومات بناء تجربة جديدة بعد ٢٠٠٣، ما يفرض على الحركات السياسية علمانية ودينية ان تمسك زمام مبادرة النهوض بهذه المهمة ،و تصحيح الاختلالات والاخطاء التي رافقت العملية السياسية منذ سبع سنوات ، ونظن ان اول خطوة في هذا الاتجاه تكون بتعزيز ثقة المواطن بالنخب السياسية الموجودة وإيمانها الفعلي بالديمقراطية ونتائج الانتخابات كأسلوب في تداول السلطة.

لا نريد ان ننجر في موضوعنا هذا الى أزمة تشكيل الحكومة وتداعياتها التي افرزت شكوكاً مشروعة في اغلبها عن قدرة الفرقاء السياسيين عن إنجاح المشروع السياسي الجديد في العراق ، غير ان ما ينبغي التنبيه عليه ان التأخير بات حالة سلبية ، وان الفرصة ما زالت مواتية لتجاوز هذه الحالة بتشكيل حكومة شراكة وطنية نبتعد فيها عن المحاصصات،عندها يمكن أن نقول إننا جادون بوضع أسس دولة مؤسسات.

أخيراً .. لابد من الإقرار بان الاحداث في العراق منذ ٢٠٠٣ وما بعدها ، أكدت أهمية ان يستعيد التيار العلماني دوره التاريخي والاستفادة من تجاربه في الانتخابات، مثلما اثبتت ان محاولة القفز على ما كسبه الاسلام السياسي من مواقع ومواطئ قدم خطأ وقفزعلى مستجدات المشهد السياسي ، وان الطريق السليم للشروع ببناء نموذج العراق الجديد ينطلق من فكرة التوازن بين ما هو علماني او ديني على اساس ان أحدهما يكمل الآخر، وهذا هو واجب التيارات العلمانية والدينية بكل توجهاتها الذي يجب ان تنهضا به في المرحلة الحالية. واذا كان من واجب التيار العلماني اجراء مكاشفة ومراجعة تتيح له إعادة بعض نفوذه الذي فقده ، فإن التيار الديني يتحمل مسؤولية اكبر تتمثل بمواجهة الفكر الاسلامي المتطرف ، الذي يحاول فرض نفوذه بالقوة . ان مهمة بناء مثل هذا النموذج ليس بالامر الهين وسيواجه بعقبات داخلية واقليمية عديدة غير انها ورغم صعوباتها ليست مستحيلة.

آراء وأفكار ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية: ١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة . ٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة. ٣. لا تزيد المادة على ٧٠٠ كلمة. ideas@almadapaper.net